العالم العربي

بين الديمقراطية والعلم
في الماضي وفي المستقبل (١)

من محاسن الاتفاق ، أنني كنت ، عند ما تلقيت الدعوة للمشاركة في هذه السلسلة من الأحاديث ، أطالع مع صديق لي ، كتاباً عنوانه « نشأة الانسانية » فيه عرض بليغ محكم لارتقاء الثقافة الانسانية ، وعوامل ذلك الارتقاء . وكنا نطالع على وجه خاص ، فصلاً في هذا الكتاب ، أفرده مؤلفه روبرت بريفولت Robert Briffault للمعهد الفكري الذي اشتهر في بغداد ، أيام المأمون وبعدها ، باسم « دار الحكمة » . وقد اتخذ المؤلف اسم هذه الدار ، رمزاً لما أسداه العرب من خدمة جليلة الى الثقافة الانسانية ، فأثنى ولم يضن ولكنه ثناء العالم المتمكن ، والكاتب الذي يزن الكلام بموازينه الدقيقة . وقد مهد لهُ ، بعد كلام طويل على عقم الحضارة البيزنطية وجمودها ، برغم مباهيها الظاهرة ، بقوله ، ان الشعلة التي سرت الى الحضارة الاوربية المنبعثة ، فأضاءت فيها سوراً كشف أمامها مجاهل الطريق الوعر ، لم تسر من الجمر الخامد تحت أكوام الخراب في أوربا اليونانية الرومانية ، ولا من غزاة الشمال الأجلاف ، بل من العرب

قبل ذلك بأسابيع ، كنت قد أنجزت اخراج كتاب « تراث العرب العلمي » ، ونشر محاضرة « معنى الديمقراطية » . اما الكتاب فللاستاذ قدري حافظ طوقان ، وأما المحاضرة فللدكتور محمد عبد الله العربي بك . فرسخت في ذهني ، على غير وعي مني ، صلة خفية بين هذه المطالعات وبين موضوع الحديث . واذا أنا اردد لنفسي : اذا صرفنا النظر عن المعاني الدينية العالية التي أشرقت على أرجاء العالم ، من هذه الأرض فليس ثمة ريب في ان نصيب الحضارة العربية ، في بنيان الحضارة العالمية ، انما يلخص في ثلاثة ألفاظ ومعنيين . أما الألفاظ فهي « الشورى » و « دار الحكمة » . وأما المعنيان فهما على حد تعبير العصر الحديث ـ الديمقراطية والعلم . وأنا انما اتخذ من لفظ الشورى ، رمزاً لجوهر النظام الديمقراطي في الحياة من حيث هو أسلوب للحكم ، وقانون للاخلاق الفردية والاجتماعية . وأتخذ من لفظي « دار الحكمة » رمزاً للعقل الذي حللتهُ اسرار الكون ، وأومأت اليه روائع الطبيعة ،

(١) ملخص حديث ألقيه بمحطة الشرق الأدنى بالقاهرة في ٢٠ مارس ١٩٤٣ في سلسلة أحاديث « العروبة »

فانطلق باحثاً منقباً عن الحقيقة ، حرًّا من كل قيد يثقله ، الاّ قيد التفكير السليم

هنا ، في هذين الجوهرين من جواهر العمران ، يتصل حاضر العالم العربي ، من ناحية بلباب تاريخه العربي المجيد . ومن ناحية مستقبل منزلته في بناء الحضارة الفتية بناءً جديداً. واذا كانت شعلة البعث الاوربي سرت من دار الحكمة الى تلك القارة عند ما بدأت تتململ في احضانها بذور الحياة الجديدة في مستهل عصر الاحياء، فني الوسع كذلك ان يساهم العرب اليوم وفي الاجيال المقبلة ، في توجيه الحياة الجديدة التي بدأت تتململ بذورها الآن، حتى بين انقاض الحرب وخرائبها . بل ان ذلك واجب علينا ، اذا شئنا ان نرتفع الى مستوى ماضينا وتراثنا ، وان نكون مخلصين لانفسنا وأمتنا . وعمل الانشاء عمل مستمر ولا سيما بعد حرب طاحنة كهذه الحرب ، والبذرة التي تبذر اليوم يحصدها ابناؤنا وحفدتنا في المستقبل منزلة عالية ومشاركة فعالة ، في الارتقاء الانساني . والدعوة الصالحة الى النهضة ، التي ما فتئت تتجاوب أصداؤها في جنبات العالم العربي ، لا تستقيم على أساس صحيح ، في جو المستقبل الذي بدأنا نتنسم أنفاسه ، الاّ على هذا الاساس

ذلك بأن الأساس في النهضة الصحيحة ، هو الاحساس بالكرامة ، والاحساس بالكرامة يستيقظ ويستمر بالانتساب الى آباء وأجداد نفخر بهم ، وماضٍ نباهي به ، وأمجاد نفتديها . فاذا استيقظ هذا الاحساس هان كل صعب اذ يصبح الشأن للتربية القويمة والتوجيه السديد

فاذا وصلنا حاضرنا بماضينا ، اضطرمت في نفوسنا معاني الرجولة ، فنستهين بالمخاطر التي تعترض سبيلنا . واذا نقبنا عن روائع تراثنا في الحرب والسلم ، في الادب والعلم والفن ، في السياسة والاخلاق ، استقام لنا معنى الاستمرار في تاريخنا ومعنى الاتصال بذلك النبع الروحي الذي استقت منه حضارتنا وهي في عنفوانها

كل نهضة قومية حديثة قامت على هذا الاحساس ، لان الشعور بالقومية هو شعور بالشخصية ، والشعور بالشخصية لا ينشأ الاّ اذا ادركنا بأن لنا كرامة نريد أن نثبت وجودها ونفرض احترامها على الناس . وان نظرة سريعة الى تاريخ العرب الحديث ، لتكفي لاقناعنا — ان كان ثمة حاجة الى هذا الاقناع — بأن الشعور القومي العربي استيقظ على نفحات الادب العربي ينبعث من مستودع الماضي الغني في منتصفه . والذين أخلصوا الى دراسة هذا الادب الغني وتأملوا جماله وروعته ، أحسوا فيه ما يحسونه فيه بلا شعور ، فقد سرت اليهم القوة من قلب الروح العربية ، فتبينوا انهم ورثة مجد كان في حوزتهم ، فرسخ ايمانهم واستقر عزمهم على العمل

ان الدول العربية ، حديثة الاستقلال ، في حاجة الى الاتصال الحي بماضيها ، وفي حاجة الى تعهد هذا الاتصال بالرعاية والاخلاص . وليس أنفع لها من حكم الصفحة التي يتوهج وراءها شعورهم ولكن الحبر الذي تكتب به الحرف ، والحرف التي تسطرها ، وانماء الفكر والقلم التي تحرك

الشعور وكثيراً ما تعمي الاعصاب ، كل ذلك يحجب عنا أحياناً ان حكم العهود والاتفاقات وآراء الاقطاب ، متصل أوثق اتصال ، بلباب ذلك الماضي المجيد الذي نفخر به ونحاول بعثه وبناء صرح المستقبل على أساسه

فالديمقراطية ، تواجه اليوم اعظم تحدٍّ وُجّه اليها ، وهي تواجه كذلك اعظم فرصة متاحة لها ، لتبني بعد الحرب اجتماعاً بشرياً ، اركانه ان الحكم الشعبي ممكن قيامه بغير طغيان زعيم فرد متحكم ، وان الحرية مثل عالٍ بعيد ، ولكن الدنوّ منه مستطاع ، وان رفع مستوى ثقافة الجماهير ، رفعاً مطرداً مستمراً في المتناول ، وان في قدرة الناس ان يقتربوا ، مهما يطل الطريق ويتوعر ، من العدل الاجتماعي ، وان اتاحة الحياة الوافرة لكل فرد من افراد المجتمع واجب واقع على كاهل كل انسان

وفي سبيل تحقيق هذه الاغراض العالية ، يجب ان تتعاون الديمقراطية والعلم

ليس في هذه المعاني معنى ، جديد لم تنطو عليه التعاليم المسيحية والإسلامية ، بل ليس فيها معنى ، لم يفرغ على تفاوت في قالب من التطبيق العملي في العهد الاول من الحضارة العربية

أشرت قبلاً الى محاضرة الدكتور العربي بك . فاليكم مقتطفات مما قاله عن المبادىء الديمقراطية في المسيحية والاسلام : قال — وأنا أخلص قوله — :

هذه الاصول والدعائم دعت اليها الديانة المسيحية دعوة صريحة في دعوتها الى اقامة العدل والرحمة والبر والاحسان والمساواة بين البشر وفي تقرير ان الانسان في انسانيته البحتة جدير بالاحترام . . . فالمسيحية اذن مهدت للبشر الاخذ بالديمقراطية عا بثته فيهم من احكام خلقية وفضائل ، وبما رسمته من حدود سلطان الدولة على الفرد ومدى طاعة الفرد لاحكام الدولة ، وبما رفعت من شأن الفرد باضفاء اسمى تكريم وتعلق غاياته من هذه الحياة . . . . . ثم جاء الاسلام ونزل القرآن ، فجعل تلك الفضائل والاحكام الخلقية التي دعت اليها المسيحية ثم تقدم بالانسانية الى الامام قدما دعوة صريحة الى نظام حكومي هو الديمقراطية في أسمى أوضاعها . فاصول هذا النظام هي اولا اختيار رئيس الدولة وهو الخليفة بالبيعة او الانتخاب العام ، ثم تقييده في تصريف شؤون الدولة بالشورى — وهو النظام البرلماني الحديث . ثم قرر في عديد الآيات وتواتر الاحاديث تلك المبادىء الاساسية التي في سبيل انتصارها فجر بركان الثورة الفرنسية وثورات اخرى سبقتها ولحقتها ، مبادىء الحرية والاخاء والمساواة . ثم قرر تلك الاصول الدستورية التي بدونها يكون النظام البرلماني اسماً على غير مسمى ، حرية الفكر والرأي والنقد ، بل قرر حق النقد الى حد لم تدعه اليه الشرائع الاوربية في القرن العشرين ، كما يدل الحديث الشريف « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده (اي بالقوة) فان لم يستطع فبلسانه (اي بالبلاغ السلطات العامة وتنبيه أولي الامر) فان لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الايمان » كما يدل عليه أخيراً جواب ذلك الاعرابي لفطينة عمر (لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا) الى ما ردت اقتباسه في المجلس بعبر

هذه هي الشورى في الناحية الواحدة . وفي الناحية التي تقابلها دار الحكمة وما ترمز اليه

أنا أعلم ان العصر عصر سرعة ، وان الوقت لا يتسع لكل منا ، لدراسة ما خلفه العرب في العلوم والفنون جميعاً ، جنباً الى جنب ما نحتاج اليه من معدات الحياة والكفاح . ولكني اؤمن كذلك بأن دراسة ما نحتاج اليه من هذه المعدات العقلية والمادية ، لا تحدي وحدها ولا

تستقيم ، ما لم تلقّح القرائح والنفوس بلقاح التراث المجيد

ان ما ابدعهُ العرب في ميدان الثقافة قد أتى الدهر على جانب منهُ ولاسيما في العلم ، فليس في ميدان العلم شيء دائم. وقد تكون دراسة ما ابدعوه تمريناً في التاريخ لغير العرب، ولكنهُ في منزلة الركن الاساسي في صرح حياتنا الجديدة ، وهو عنصر لا غنى عنهُ في إعدادنا للاضطلاع بالتبعات الجسام التي لا بد أن تقع علينا ، في عهد الترميم والانشاء الذي يلي الحرب اذا شئنا ألاّ نتخلف عن الاضطلاع بها. وقد يكون ابن الهيثم أصاب أو أخطأ في بعض آرائه وقد تكون سجف النسيان قد أسدلت على بعض آرائهِ الصائبة ؛ ولكن ذلك لا يهمني بقدر ما يهمني ان ابن الهيثم قد أبدع في البصريات من الف سنة من الزمان ، وان الحضارة الحديثة أخذت عنهُ ما أبدع فكان لبنة من بناء صرح العلوم الحديثة . وقد تكون مئات المؤلفات والرسائل التي ترجمها وألفها رجال دار الحكمة ، او غيرهم ممن سبق عهدها الزاهر او تبعهُ مما لا يُرجع اليهِ الآن لمعرفة الرأي الاخير في هذه المسألة العلمية او تلك ، ولكن ذلك في نظري يأتي في المنزلة الثانية ، للمغزى التاريخي الاول والاهم المنبثق من ذكر دار الحكمة . هناك جمع الخلفاء طائفة من الرجال ، بغير تمييز بين عنصر او مذهب ، وأطلقوا لهم حرية البحث ، وأمدوهم بالمال وغمروهم بالرعاية وشجعوهم بالاهتمام الخاص فانطلقوا يبحثون عن كتب العلم القديم ينقلونها الى العربية ، وطوفوا في اقطار الشرق الاوسط جميعاً يجمعون الحشائش ويصفونها ، ورادوا مسائل الحساب والجبر والفلك والكيمياء والطب وأبدعوا فيها فوضعوا فيها أشهر المؤلفات ، ومنها ما بقي كتباً تدرّس في الجامعات الاوربية الى قبل قرنين من الزمان. قال بريفلت في كتابهِ الذي أشرت اليهِ في الاستهلال : «ان الذي اطلق عليه اسم «العلم» قام في اوربا نتيجة لروح جديدة في البحث وأساليب جديدة في الاستطلاع وطريقة جديدة في التجريب والاستقراء ، والقياس — هذه الروح وهذه الاساليب، مردّها في اوربا الى العرب»

فالعرب حفظوا من الضياع ، خلاصة الحضارات القديمة التي اتصلوا بها وأضافوا اليها من مبتكرات عقولهم ثم نفحوا الحياة الاوربية الجديدة في مستهل عصر الاحياء بهذا التراث المجيد . ولذا كنا حين نقرأ العلوم الحديثة لا نجد كشفاً من الكشوف المخطيرة الاساسية يعزى الى العرب ، فيجب ألاّ ننسى ، أن العلم مدين للثقافة العربية . بأكثر من كشف خطير ، انهُ مدين لها بحياتهِ

وكذلك نستقيم لنا عناصر الشعة الكبيرة الواقعة على عواتقنا ، ونحن نختار هذه الرحلة ، من أزمة الحضارة الحديثة . ولا بد ان تنجلي الغبراء يوماً ما على وجه لا رب عندي فيه فالحرب الماشية . ليست سوى حادثة — عظيمة ولكنها عابرة — في ثورة متنقلة الى

أصول الحياة نفسها ، في مخاض عالم جديد . والثورة إما أن تقاومها وإما أن تسلم بحقيقتها وتحاول جهدك أن توجهها نحو الهدف العالي الذي جعلته هدفك. انك لا تستطيع أن تتجاهلها

والمستقبل في هذا العالم الجديد ، لكيمياء اجتماعية جديدة ، عنصراها هما الديمقراطية والعلم. انهما قوتان رئيسيتان من قوى العمران . وهما أبداً متفاعلتان . فالعلم ونتاجه النظري وتطبيقه العملي يقبح الديمقراطية العناصر التي توسع من نطاقها ، وترسخ من أركانها ، وتعمم من نعمها . وهو يأبى القيد وإما أن يهجر الأرض التي تثقلهُ فيها القيود ، وإما أن ينحي ويزحزح تحت عبئهِ . والديمقراطية تهيء للعلم التربة والجو اللذين يزكو فيهما غرسه ، وينضر ورقهُ ، وينضج ثمره . ومن مفاخر الحضارة التي نحن ورثتها في إبان ازدهارها قبل ألف سنة ، أن الخلفاء والأمراء كانوا يبيحون للعلماء والباحثين حرية كاملة بغير نظر الى مذهب أو عنصر. ولا عجب فالمسيحية والاسلام ، حثّا على العلم ووطدا للفضائل الديمقراطية وأساليبها. وهذا الاقتران هو سرُّ ما نعمت بهِ الحضارة العربية والحضارة العالمية ، من حياة

ولكن الأصول الديمقراطية القديمة يجب أن تبعث فيها حياة جديدة ، وأن تطبق تطبيقاً يكفل علاج الأدواء الاجتماعية والاقتصادية ، التي مرد معظمها الى ارتقاء العلم والصناعة وتكدس الثروة في أيدي فئة يسيرة من الناس . فالعلم الذي أسدى الى الحضارة أعظم الأيادي بتسهيل أسباب العيش على كثيرين من الناس ، أفضى الى غير قليل من التناوت والاثرة والتوزيع الجائر والنزعة المادية

واذا كانت السياسة في أثناء الحرب ، خادمة الخطة الحربية فإنها يجب ان تغدو بعد الحرب خادمة العلم . فيتعين عليها حينئذ ان تضمن ان ثمار العلم لا تضيع جزافاً ولا يساء استعمالها . وهذه القاعدة يجب ان تكون الناموس الاساسي ، الذي تقوم عليهِ الكيمياء الاجتماعية الجديدة . اذ لا يكفي ان نسعى ، وان يهرق الدم الزكي في سبيل تأييد حقوق الانسان السياسية ، بغير أن تقضي على الجوع والمرض والتعطل عن العمل جنباً الى جنب القضاء على السيف والاستبداد وسيلة لتسخير الناس . عندئذٍ نستطيع ان ننفخ معنى وحياة في ذلك الحق الانساني الأول الذي يشمل الحقوق جميعاً ، وهو « حق الحياة والحرية وانشدان السعادة » . فالواجب علينا اذا شئنا ان نرتفع الى مستوى الأماني والآمال ، التي كثيراً ما نعرب عنها ونطالب بتحقيقها ، هو ان نعمل حاضرنا لتأميننا نتلهمهُ ونستوحيه . ففيه جميع الأصول التي يجب ان يبنى عليها العالم الجديد . ثم علينا ان نعمل حاضرنا لمستقبلنا بترويض النفوس وإعداد العقول ، للمشاركة في هذا البناء ، وهذا ميدان للجهاد الأكبر يصغر بالقياس اليهِ كل جهد حربي . ومن يهمله ، يحقر ماضيهُ ويستخف بحاضره ويضيع مستقبلهُ